مَصابيحُ العلم



15

نَشْرَةٌ دَعَوِيَّةٌ تُعْنَى بِالتُّرَاثِ والمَخْطُوط والسِّيَر والتَّارِيخ /العدد الخامس عشر/ المحرَّم 1443هـ- أوت 2021.



✵ زيارة القبور الشَّرعيَّة والبِدْعيَّة

عثمان أفندي العثماني؛ حافظ الكتب

✵ يَقُولُونَ، ونَقُولُ! ـ 2 ـ

أبو إبراهيم الزَّوَاوِي مليانِي

✵ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ

إجازة الشَّيخ عثمان بن المَكِّي للشَّيخ موسى الأحمدي نْوِيوَات

المحتويات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❊ إنَّ الحمد لله نَحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَستَغْفِرُه، ونَعُوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنفسِنا ومِن سَيِّئات أعمالنا، مَن يَهدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِل فلَا هَادِيَ له، وأَشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحمَّدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران:102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النِّساء:1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: 70 –71].

أمَّا بعد: فإنَّ خيرَ الكلام كلام الله تعالى، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحمَّد ﷺ، وشرَّ الأُمُور مُحْدَثَاتُها، وكُلَّ مُحدثةٍ بِدعة، وكُلَّ بِدعةٍ ضَلَالةٌ، وكُلَّ ضَلَالَةٍ في النَّار.



* الافتتاحيَّة:

"إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَات"

في شهر شعبان من عام 877هـ ولِّيَ الحافظ الجلال السُّيُوطِيُّ مشيخةَ الحديث بالمدرسة الشِّيخُونِيَّة بالقاهرة، بعد وفاة شيخها الفخر المقسمي[1]، وكان أوَّل درسٍ ألقاه بها، هُو إملاءُ شرحٍ على حديثِ ابن عبَّاسٍ: «**يا غلامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احفظِ اللهَ يحفظكَ**»[2].

ولمَّا وصل الحافظ الشِّهاب ابن حجر الشَّامَ سنة 802هـ، عقدَ يوم الثُّلاثاء 16 شعبان في جامع بني أميَّة مجلسَ إملاءٍ؛ أَمْلَى فيه حديث «المُسَلْسَل بِالأَوَّلِيَّة» ثمَّ حديث ابن عبَّاس: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**»، وتكلَّمَ عليهِ شرحًا وبيانًا، كما أَمْلَى حديث «**نضَّرَ اللهُ امْرَءً...**»[3].

(1) بدائع الزهور لابن أياس (3/ 82).

(2) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي (1/ 113- ترقيم الشاملة).

(3) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر للسخاوي (1/ 181).

ولمَّا كان الحافظ التَّقِيُّ ابن تيميَّة بالقاهرة، لَقِيَهُ الحافظ مُغُلْطَايْ، قال: «وجِئْتُه لأُوَدِّعَه، وسَأَلْتُهُ الوَصِيَّةَ والدُّعاءَ فقال لي: **يا غُلَامُ! رُوِّينا في كتابِ التِّرمذيِّ بإسنادٍ ثابتٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لابن عبَّاسٍ: «يا غلامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كلماتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ** ... » إلخ الحديث[4].

وهذا الحديث مِن الأحاديثُ الكلِّيَّة، أَحَدُ أحاديث «الأربعين» الَّتي جمعها الشَّرَفُ النَّوَوِيُّ، وقال الحافظ ابن رجب في شرحه «جامع العلوم والحكم»: «**هذا الحديث يَتَضَمَّنُ وصايا عظيمةً وقَوَاعِدَ كُلِّيَّةً مِنْ أَهَمِّ أمور الدِّين، حتَّى قال بعض العلماء: تَدَبَّرْتُ هذا الحديث فأَدْهَشَني وكِدْتُ أَطِيشُ، فوَا أَسَفًا مِن الجَهْلِ بِهَذَا الحديثِ وقِلَّةِ التَّفَهُّمِ لِمَعْنَاهُ**».

والعالمُ المذكورُ هو الحافظ ابن الجَوْزِي، صرَّح الحافظ ابن رجب بِاسمِهِ في الجزء الكبير الَّذي أفرده لشرح

(4) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص343).

هذا الحديث، وسَمَّاهُ «**نُور الاِقتباس في مشكاةِ وَصِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ لابن عبَّاس**»[5].

والشَّرَفُ النَّوَوِيُّ في كتابه «الأذكار» في خاتمتِهِ سَاقَ ثلاثين حديثًا من «**الأحاديث الَّتي عليها مدار الإسلام**»[6]، وجعل منها حديث ابن عبَّاس، وهو فيه (الحديث التَّاسع والعشرون)، وقال عَقِبَهُ: «**هَذَا حَدِيثٌ عَظِيمُ المَوْقِعِ**»[7].

وساق الشِّهاب الآلُوسِي في تفسيره «روح المعاني»[8] كلامَ الشَّيخ عبد القادر الجيلاني في «فتوح الغيب»، الَّذي استشهدَ بهذا الحديث، وقال: «**فينبغي لِكُلِّ مؤمنٍ أن يَجعل هذا الحديث مِرآةَ قَلْبِهِ وشِعَارَهُ ودِثَارَهُ وحَدِيثَهُ، فيَعملَ بِهِ مِن جهةِ حركاته وسكناته، حتَّى يَسْلَمَ في الدُّنيا والأخرة، ويَجِدَ العِزَّةَ بِرَحْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**».

(5) مجموع رسائل ابن رجب (3/ 93)، ط. الفاروق.

(6) الأذكار للنووي (ص405).

(7) الأذكار للنووي (ص411)، ط. دار الفكر.

(8) (7/ 114– دار إحياء التراث).

هذا، وقد أورد الشَّرَفُ النَّوَوِيُّ هذا الحديث في كتابه «رياض الصَّالحين» في (باب المراقبة) بعد سَوْقِهِ آياتٍ في الباب:

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء:218-219]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد:4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:5]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾[الفجر:14]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:19].

* عَقِيدَةٌ وَتَوحِيد:

زِيَارَةُ القُبُور الشَّرْعِيَّة والبِدْعِيَّة

مِن المطلب السَّادس مِن

«المَطَالِبُ السّنيَّة في قَمْعِ المَرَاسِم البِدْعِيَّة»(9)

عثمان أفندي حافظ الكتب (ت 1183هـ)

«تذييل: وينبغي أن يعتقد أنَّ زيارة قبور الموتى مأذونٌ بها بحديث سعيد أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فمن أراد أن يزور فليزر**»، رواه الإمام أحمد والنَّسائي، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**زوروا القبور فإنَّها تذكِّر الموت**»، رواه مسلم، وعلَّم كيفيَّتها بحديث سليمان بن بريدة عن أبيه أنَّه قال: «**كان رسول الله ﷺ يعلِّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: السَّلام على أهل الدِّيار**، وفي لفظ مسلم: **السَّلام عليكم يا أهل الدِّيار من المؤمنين والمسلمين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية**»، وبحديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: «**أتى رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه فقال: السَّلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر**»، رواه الإمام أحمد والتِّرمذي وحَّسنه. فظهر من إذنه ﷺ بزيارة القبور فائدتان: إحداهما عائدة إلى الزَّائر، فهي تذكِّره الموت والآخرة والزُّهد في الدُّنيا والاتِّعاظ والاعتبار بحال الميِّت، والثَّانية عائدة إلى الميِّت وهي سلام الزَّائر عليه ودعائه له بالرَّحمة والمغفرة وسؤال العافية لنفسه وللميِّت، فينبغي لمن يزور قبر ميِّت أيِّ ميِّت كان سواء كان من الأولياء أو من غيرهم من المؤمنين أن يسلِّم عليه ويسأل له العافية ويستغفر له ويترحَّم عليه، ثمَّ يعتبر بحال من زاره ويتفكَّر فيما صار إليه حاله، وبما سئل عنه وبماذا أجاب، وهل كان قبره روضة من رياض الجنان أو حفرة من حفر النِّيران، ثمَّ يجعل الزَّائر نفسه كأنَّه مات ودخل في القبر وذهب عنه ماله

---

(9) النَّقْلُ من النُّسخة المخطوطة بمكتبة أحمد باشا برقم 157.

وأهله وبقي وحيدًا فريدًا وهو الآن يسأل، ويكون مشغولًا بهذا الاعتبار ما دام هناك، ويتعلَّق قلبه بمولاه في الخلاص من هذه الأمور الخطيرة العظيمة ويلتجأ إليه تعالى. وأمَّا قراءة القرآن عند القبور، فاختلف العلماء في جوازه وعدمه........................[10]

فهذه الزِّيارة زيارة شرعيَّة سُنِّيَّة، وأمَّا الزِّيارة البدعيَّة فزيارة القبور لأجل الصَّلاة عندها وتقبيلها واستلامها ودعاء أصحابها والاستغاثة بهم وسؤالهم النَّصر والعافية والولد وقضاء الدُّيون وإغاثة اللَّهفات وغير ذلك من الحاجات الَّتي كان عبَّاد الأصنام يسألونها من أوثانهم، فهذه الزِّيارة ليست بمشروعة باتِّفاق أئمَّة المسلمين، إذ لم يفعله رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام ولا أحد من الصَّحابة والتَّابعين ولا سائر أئمَّة الدِّين بل أحدثتها المبتدعة في الدِّين الَّذين لا يبالون بالشَّريعة والدِّين، أعاذنا الله تعالى وسائر المسلمين عن الاتِّباع بمثل هؤلاء المبتدعين. فالحاصل أنَّ الميِّت قد انقطع عمله بحديث البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إذا مات الإنسان** ـ وفي رواية: **ابن آدم** ـ **انقطع عمله إلَّا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**»، فهو محتاج إلى من يدعو له ويشفع لأجله، ولهذا شرع في الصَّلاة عليه من الدُّعاء له ما لم يشرع مثله في الدُّعاء للحيِّ، قال عوف بن مالك: «**صلَّى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: اللَّهمَّ اغفر له وارحمه وعافه وعاف عنه وأكرم منزله ووسِّع مدخله واغسله بالماء والثَّلج والبرد ونقِّه من الذُّنوب والخطايا كما نقَّيت الثَّوب الأبيض من الدَّنس وبدِّله دارًا خيرًا من داره وأهلًا خيرًا من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه وأدخله الجنَّة وأَعِذْهُ من عذاب القبر ومن عذاب النَّار، حتَّى تمنَّيت أن أكون ذلك الميِّت لدعاء رسول الله ﷺ له**». رواه مسلم.

وأمَّا البناء على المقابر وإيقاد السُّرج والقناديل وتعليق الأستار وجعل

---

(10) هنا فقرةٌ ـ حذفناها اختصارًا ـ تعرَّض فيها للاختلاف الفقهي.

الوظائف لحفظتها وتجصيصها والكتابة على أحجارها تعظيمًا لأصحابها، فهذه الأمور ليست تعظيمًا في الحقيقة، إذ لو كان البناء على القبور ونحوه تعظيمًا لأهلها لَمَا أمر النَّبيُّ ﷺ بتسويتها، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي الهيَّاج الأسدي أنَّه قال: «**قال لي عليٌّ بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالًا إلَّا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلَّا سوَّيته**»، بل إسراف وإضاعة مال بلا فائدة عائدة إلى الميِّت أو إلى عاملها منهيَّة بالآثار الصَّحيحة الصَّريحة، منها: أنَّه عليه السلام نهى عن إيقاد السُّرج عليها، كما روى الإمام أحمد وأهل السُّنن عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه عليه السلام لعن زائرات القبور والمتَّخذين عليها المساجد والسُّرج، فكلُّ ما لعن عليه رسول الله ﷺ صرَّح الفقهاء بتحريمه، ومنها أنَّه عليه السلام نهى عن تجصيصها والبناء عليها، كما روى مسلم في «صحيحه» عن جابر رضي الله عنه أنَّه نهى عن تجصيص القبر وأن يبنى عليه، ومعلومٌ أنَّ البناء على القبور من صنيع أهل الجاهليَّة، ومنها: أنَّه عليه السلام نهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود في «سننه» عن جابر رضي الله عنه أنَّه عليه السلام نهى عن تجصيص القبور وأن يكتب عليها، وأنَّه عليه السلام نهى عن الزِّيادة عليها من غير ترابها، ومنها: أنَّه عليه السلام نهى عن الصَّلاة عندها، كما روى مسلم في «صحيحه» عن [أبي] مرثد الغنوي، والآثار الواردة في النَّهي عن هذه الأمور كثيرة لا يسع هذه الأوراق ذكرها.

فإن قيل: ما الَّذي أوقع النَّاس في الافتتان بهذه الإضاعات والإسرافات مع علمٍ بأنَّ ساكنيها لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا، قيل: أوقعهم في ذلك أسباب: منها: الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله بل جميع الرُّسل من تحقيق التَّوحيد وقطع أسباب الشِّرك، فالَّذي قلَّ نصيبه من ذلك افتتن بهذه البدع، ومنها: ما قاله المبتدعة من أنَّ الميِّت المعظَّم الَّذي لِرُوحه قربٌ ومزيَّةٌ عند الله تعالى لا يزال يأتيه الألطاف من الله تعالى ويفيض على روحه الخيرات، فإذا علَّق الزَّائر روحه به وأدناه منه فاض من روح المزور على روح الزَّائر من تلك الألطاف بواسطتها، كما ينعكس الشُّعاع من المرآة الصَّافية

والماء الصَّافي ونحوهما على الجسم المقابل له، ثمَّ قالوا: فتمام الزِّيارة أن يتوجَّه الزَّائر بروحه إلى الميِّت ويعكف بهمَّته عليه ويوجِّه صدقه وإقباله إليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره، وكلَّما كان جمع الهمَّة والقلب عليه كان أقرب إلى انتفاعه به. وقد ذكر هذه الزِّيارة على هذا الوجه ابن سينا، وقد صرَّح ابن الصَّلاح في «فتاواه» أنَّ ابن سينا فيلسوف ما كان عالمًا ولكن كان شيطانًا من شياطين الإنس، ومنها: أحاديث مكذوبة مخترعة وضعها أشباه عبَّاد الأصنام من المقابريَّة على رسول الله ﷺ، كحديث: «**إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور**»، وحديث: «**لو حسَّن أحدكم ظنَّه بحجر نفعه**»، وحديث: «**إذا تحيَّرتم في الأمور فاستعينوا من أصحاب القبور**»، وأمثال هذه الأحاديث موضوعة ومناقضة للقرآن والأحاديث الصحيحة، وقد علَّمنا الله تعالى في كتابه المبين أن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:126] لا من غيره على طريق الحصر والقصر، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:107]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [هود:113]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:110]. روى أبو داود عن العرباض بن سارية رضي الله عنه أنَّه قال: «**صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثمَّ أقبل علينا بوجهه فوعظنا موعظةً بليغةً ذرفت فيها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله، كأنَّ هذه موعظةُ مودِّعٍ فماذا تعهد إلينا. قال: أُوصِيكم بتقوى الله والسَّمع والطَّاعة وإن كان عبدًا حبشيًّا، فإنَّه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة**»، صدق رسول الله. وإنَّه تعالى أنزل القرآن بِقَتْلِ

مَن حسَّن ظنَّه بالأحجار وعظَّمها، ومنها: حكايات حكيت عمَّن يلازم القبور، أنَّ فلانا استغاث بقبر فلان في شدَّة فخلص منها، أو دعى بها في حاجة فقضيت حاجته، وفلان نزل به ضرٌّ فاستدعى صاحب ذلك القبر فكشف ضرَّه، ومثل هذه الحكايات كثيرة يطول ذكرها اخترعها من افتتن بالقبور ونسي أنَّ المعطي والمانع هو الله تعالى، فإنَّه عز وجل يقبل دعوات عباده ويقضي حاجاتهم، قال ابن القيِّم في «إغاثته» ـ نقلًا عن شيخه ـ: وهذه الأمور المبتدعة عند القبور على مراتب، أبعدها عن الشَّرع أن يسأل الميِّت حاجته ويستغيث به فيها كما يفعله كثيرٌ من النَّاس، وربَّما يتمثَّل لهم الشَّيطان في صورة الميِّت أو الغائب في بعض الأزمان كما يتمثَّل لعبَّاد الأصنام ويخاطبهم ببعض الأمور الغائبة، فإنَّ الشَّيطان يُضِلُّ بني آدم بحسب قدرته، عصمنا الله تعالى من شرِّه وشرِّ اتِّباعه، آمين».

* سَبِيلُ السُّنَّة:

يَقُولُونَ، وَنَقُولُ!

- 2 -

- يقولون:

عندكم اعتدادٌ بالرَّأي واحتقارٌ للأئمَّة، بدعوى اتِّباع الدَّليل، والدَّوران مع النُّصوص حيث دارت.

- ونقول:

إنَّ ههنا وقفةً...

إذا كان الانتصار للحقِّ ورفع الرَّأس بالحديث النَّبويِّ والسُّنَّة الصَّحيحة؛ اعتداداً بالرَّأي فَلْيكُنه، وإلَّا فمتى ما منعنا الشُّجاع مثلًا أن يتقدَّم في مواطن يرضى عنه فيها ربُّه إعلاءً لكلمته، خشية أن يسمِّيها المتحسِّس تهوُّرًا؛ أو منعنا صاحب الحقِّ أن يعلو مقالُه في مواضع يردُّ بها عن الدِّين الباطلَ، خشية أن يسمِّيها المتحسِّس تفاصحًا، وهكذا...تعطَّلت سبل الدَّفع عن الدِّين وغُزيت حصونُه، وهكذا لو أنَّنا ماشينا من نخشى منهم أن يتحسَّسوا منَّا بجعلهم انتصارنا لحديث الرَّسول عَلَيْهِ السَّلَامُ دليلًا على الاعتداد بالرَّأي وعدم احترام آراء المذاهب؛ لأفضى ذلك إلى إهمال السُّنَّة وترك إعمال الدَّليل منها، لاسيَّما في المواطن الَّتي تظهر فيها المناقضة صريحة، والتَّساهل في هذا الأمر هو الَّذي جعل بعض الفقهاء يستبطن العصمة في مذهب جماعته قائلًا: «**كلُّ حديث يخالف مذهب أبي حنيفة فهو ضعيف أو منسوخ**». قاله معروف الكرخي عفا الله عنه. في الحين الَّذي قال فيه صاحبه حين ضبط نفسه بالوحي: «**كلُّ ما أفتيت به فقد رجعت عنه إلَّا ما وافق الكتاب والسُّنَّة**، وفي لفظ: **إلَّا ما في القرآن، واجتمع عليه المسلمون**». قاله أبو يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ[11].

والرَّجلان ـ كلاهما ـ حنفيَّان ينهلان من مشرب النُّعمان؟

وأما أن يكون في ذلك احتقارٌ للأئمَّة فباطلٌ ـ شرعًا وعقلًا وعرفًا ـ ألف مرَّة ومرَّة، وما على من يشنِّع بهذا إلَّا مراجعة

(11) كما في «السِّيَر» للذَّهبي (8/ 537).

ما اشتهر عن الأئمَّة من تقديمهم متابعة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام على متابعتهم ـ هم ـ فيما ناقضوا به من فتاويهم أحاديثَه وسننَه، وهذا معروف بين الأتباع أنفسهم، ومتداولٌ بينهم بما لا يحتاجون معه إلى تذكير، كيف وهم من نقلوا عن مالك رَحِمَهُ اللهُ قولته الشَّهيرة: «**كلٌّ يؤخذ من قوله ويردُّ إلَّا صاحب هذا القبر**». وعن أبي حنيفة وباقي الأربعة ـ رحمهم الله ـ مثلها؟

وقال ابن خزيمة: «ليس لأحد مع رسول الله ﷺ قولٌ إذا صحَّ الخبر»[12].

وقد بلغ الأمر بالإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ، إمعانًا منه في اتِّباع الآثار؛ أن قدَّم العمل بالضَّعيف منها على رأي النَّاس إذا خلا الباب من حديث صحيح معتمد، روى الخطيب البغدادي عن ابنه عبد الله قال: «سألت أبي عن الرَّجل يريد أن يسأل عن الشَّيء من أمر دينه؛ يعني ممَّا يبتلى به من الأيمان في الطَّلاق وغيره، وفي مصره من أصحاب الرَّأي ومن أصحاب الحديث لا يحفظون ولا يعرفون الحديث الضَّعيف ولا الإسناد القوي؛ فمن يسأل؟ أصحاب الرَّأي أو هؤلاء أعني أصحاب الحديث، على ما كان من قلَّة معرفتهم؟ قال: «**يسأل أصحاب الحديث ولا يسأل أصحاب الرَّأي ...**»».

وقال السَّخاوي رَحِمَهُ اللهُ: «روينا من طريق عبد الله بن أحمد بالإسناد الصَّحيح إليه، قال: سمعت أبي يقول: **لا تكاد ترى أحدًا ينظر في الرَّأي إلَّا وفي قلبه دغل، والحديث الضَّعيف أحبُّ إليَّ من الرَّأي**»[13].

فكيف لو رأى رَحِمَهُ اللهُ ما أحدثه كثيرٌ من الأتباع بعدهم؛ من الاستماتة في التَّعصُّب لهم وعدم الخروج عن قولهم، إخلادًا منهم إلى تقديس المتبوع إلى حدٍّ لا يكاد يُعقل أن يصنعه بشرٌ؛ خلق الله له في نفسه قوةً مميزةً يقال لها العقل؟

وطبعًا؛ قد رجَّح كثيرون أنَّ الضَّعيف هنا هو الحديث الحسن وليس هذا محلَّ

(12) «النُّبلاء» للذَّهبي (14/ 373).

(13) «قواعد التَّحديث» (120).

الاستطراد في ذلك، وإنَّما لو سلَّمنا أنه يريد الضَّعيف على اصطلاح المتأخِّرين، وهو ما لم يكن صحيحًا ولا حسنًا ـ كما هو مذهب البعض ـ فإنَّ السَّبب في تقديمه له على الرَّأي؛ هو مجموعة أمور لا تخرج عن حيِّز ما نحن فيه من مراعاة احترام السُّنن وتوقيرها، فمن ذلك:

أوَّلًا: صيغة السُّؤال الَّتي وردت على لسان عبد الله بن أحمد واضحة في بيان أنَّ السَّائل مُضَيَّقٌ عليه حاله، من جهة أنَّه لا يجد إلَّا صاحب حديث غير مميِّز، وآخر صاحب رأي، فلأجل ذلك دلَّه على صاحب الحديث، ولم يدلَّه على صاحب الرَّأي، ولو كان يمكن هذا السَّائل أن يحرز صاحب حديث متقن مميِّز؛ لما كان لأحمد رحمه الله تعالى أن يحيله على ذلك الَّذي لا يميِّز، والأمر واضح غاية، يؤكِّده أنَّ أحمد سأله مرَّة ولده عبد الله فقال: «سألتُ أبي عن الرَّجل يكون عنده الكتبُ المصنَّفة فيها قولُ رسول الله ﷺ والصَّحابة والتَّابعين، وليس للرَّجل بصرٌ بالحديث الضَّعيف المتروك، ولا الإسناد القويِّ من الضَّعيف، فيجوزُ أن يعمل بما شاء ويتخيَّر منها فيفتي به ويعمل به، قال: لا يعمل حتَّى يسألَ ما يؤخذُ به منها فيكون يعمل على أمر صحيح، يسأل عن ذلك أهلَ العلم».

ثانيًا: أنَّ نفس قصدِ اتِّباع الرَّسول ﷺ في الجملة، مقدَّمٌ على قصد اتِّباع غيره ومأجور عليه، ولذلك أولاه الإمام عنايتَه بإرشاده السَّائلَ إلى حامل الكلِم النَّبويِّ دون غيره من النَّاس.

قال ابن حزم رحمه الله: «صدق أحمد رحمه الله، لأنَّ من أخذ بما بلغه عن رسول الله ﷺ وهو لا يدري ضعفه، فقد أُجر يقينًا على قصده إلى طاعة رسول ﷺ، كما أمره الله تعالى»[14].

ثالثًا: إنَّ إحالة أحمد رحمه الله السَّائل على صاحب الحديث غير المميِّز؛ لا تقتضي بالضَّرورة أن يكون كلُّ ما يحدِّث به مثل هذا؛ حديثًا ضعيفًا، بل قد يكون فيه ما هو صحيحٌ أو حسنٌ، ممَّا هو مقبولٌ معمول

(14) «الإحكام» (6/ 226).

به، والأمر من هذه الجهة أسلم وأهون من الَّذي يحدِّث بمحض الرَّأي.

رابعًا: أنَّنا لو سلَّمنا أنَّ الحديث ضعيف في نفس الأمر، لكان أهون من الرَّأي المحض من جهة ثانية؛ وهي أنَّ الضَّعيف ولو كان ضعيفًا فإنَّ فيه شبهةَ الوحي، لأجل الشَّكِّ الَّذي فيه، ولأجل إمكان ارتقائه وانجباره، قال البزدوي[15]: «فكان الاحتمال في الرَّأي أصلًا، وفي الحديث عارضًا».

بينما الرَّأي المحض على خلاف ذلك، إذ لا شبهة للوحي فيه، اللَّهمَّ إلَّا من عينٍ ضيِّقةٍ، وهي إمكان أن يكون واردًا من قياس صحَّت شروطه وانتفت موانعه، فيندرج تحت الاعتبار الصَّحيح الَّذي جاء به الشَّرع، ولعلَّه في مثل هذا المقام قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يتكلَّم عن كراهة الصَّلاة إلى المتحدِّثين: «... وقد روي أنَّ النَّبيَّ ﷺ نهى عن الصَّلاة إلى النَّائم والمتحدِّث، رواه أبو داود؛ خرج التَّطوُّع منه لحديث عائشة وبقي الفرض على مقتضى العموم، وقيل لا يكره فيهما لأنَّ حديثَ عائشة صحيحٌ، وحديثَ النَّهي ضعيفٌ، قاله الخطَّابي، وتقديم قياس الخبر الصَّحيح أولى من الضَّعيف»[16].

خامسًا: «أنَّ الرَّأي من حيث هو رأي؛ لا ينضبط إلى قانون شرعيٍّ إذا لم يكن له أصلٌ شرعيٌّ، فإنَّ العقول تستحسن ما لا يستحسن شرعًا، وتستقبح ما لا يستقبح شرعًا، وإذا كان ذلك كذلك صار القياس على غير أصل فتنة للنَّاس» وما يُخشى على صاحب الرَّأي هو أن لا يكون مُلِمًّا من الكتاب والسُّنَّة والإجماع؛ القدر الَّذي يجعله «يعرف الأشباه والنَّظائر، ويفهم معاني الأحكام فيقيس قياس تشبيه وتعليل، قياسًا لم يعارضه ما هو أولى منه» إذ «القياس الهادم الإسلام، ما

(15) كما في «**فتح المغيث**» (1/ 147).

(16) «الشرح الكبير» (1/ 626).

عارض الكتاب والسُّنَّة، أو ما عليه سلف الأمَّة، أو معانيها المعتبرة»[17].

قال شيخ الإسلام: «ولهذا قال أحمد بن حنبل لبعض أصحابه: أكثرُ ما يخطئُ النَّاس من جهة التَّأويل والقياس»[18].

قلت: لقد كان أحمد أثريًّا خالصًا، ولقد حُمِد منه ذلك إذ كان رَحِمَهُ اللهُ قفلًا في باب الإحداث في الدِّين، قال قتيبة كما في «السِّير» من ترجمة أحمد: «**ولولا أحمد لأحدثوا في الدِّين**»، ولقد كان من بركة هذا التَّعصُّب للخبر والتَّعلُّق بالأثر أن كان أقلَّ الأئمَّة أتباعًا ذوي بدعة؛ قال شيخ الإسلام: «وأهلُ البدع في غير الحنبليَّة أكثرُ منهم في الحنبليَّة بوجوهٍ كثيرةٍ؛ لأنَّ نصوصَ أحمد في تفاصيل السُّنَّة ونفي البدع أكثرُ من غيره بكثير»[19].

و جاء في «**المجموع**» (4/ 48) عن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أنَّه قال أيضًا ـ في الرَّدِّ على بعض أئمَّة أهل الكلام لمَّا تكلَّموا في المتأخِّرين من أهل الحديث وذمُّوهم بقلَّة الفهم وأنَّهم لا يفهمون معاني الحديث ولا يميِّزون بين صحيحه من ضعيفه ويفتخرون عليهم بحِذقهم ودقَّة علومهم فيها ـ : «لا ريبَ أنَّ هذا موجودٌ في بعضهم يحتجُّون بأحاديث موضوعة في مسائل الفروع والأصول وآثارٍ مفتعلةٍ وحكايات غير صحيحةٍ ويَذكرون من القرآن والحديث ما لا يفهمون معناه، وقد رأيت من هذا عجائب؛ لكنَّهم بالنِّسبة إلى غيرهم في ذلك كالمسلمين بالنِّسبة إلى بقيَّة المِلل، فكلُّ شرٍّ في بعض المسلمين فهو في غيرهم أكثرُ وكلُّ خير يكون في غيرهم فهو فيهم أعظمُ وهكذا أهلُ الحديث بالنِّسبة إلى غيرهم وبإزاء تكلُّمِ أولئك بأحاديث لا يفهمون معناها

---

(17) ما بين المعقوفين من كلام الشَّاطبيِّ في «**الاعتصام**».

(18) كما في «**المجموع**» (4/ 189).

(19) «**المجموع**» (4/ 272).

تكلَّف هؤلاء من القول بغير علمٍ ما هو أعظمُ من ذلك وأكثر، وما أحسنَ قول الإمام أحمد: ضعيفُ الحديث خيرٌ من الرَّأي، وقد أمر الشَّيخُ أبو عمرو ابن الصَّلاح بانتزاع مدرسةٍ معروفة من أبي الحسن الآمديِّ، وقال: أخذُها منه أفضل مِن أخذ عكَّا. مع أنَّ الآمديَّ لم يكن في وقته أكثرَ تبحُّرًا في الفنون الكلاميَّة والفلسفيَّة منه، وكان من أحسنهم إسلامًا وأمثلهم اعتقادًا، ومن المعلوم أنَّ الأمورَ الدَّقيقةَ – سواءٌ كانت حقًّا أو باطلًا؛ إيمانًا أو كفرًا – لا تُدركُ إلَّا بذكاء وفطنة؛ فلذلك يستجهلون من لم يشركهم في عملهم وإن كان إيمانه أحسنَ من إيمانهم؛ إذا كان منه قصورٌ في الذَّكاء والبيان، وهم كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾ [المطفِّفين:29 – 30] ...».

وإذا كنت أطلت باستطرادي هذا، فيما نقلت عن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فعذري فيه تلمُّس ما من أجله قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كِلْمته تلك، وهو يتعامل مع الحديث الضَّعيف؛ فكيف لو رأى من يردُّون الصَّحيح من الأخبار لقول فلان وفلان؟؟؟

إنَّما ـ إنصافًا ـ أعود فأقول: نعم يوجد في السَّلفيِّين «**بعضُ**» من حملته شرَّتُه لطلب الدَّليل إلى الوقوع في الإغراب، والخروج على النَّاس ببعض ما لا ينبغي أن تصحَّ الفتوى به، بل وازدراء بعض المتعجِّلين منهم للمذاهب بإطلاق؛ إمعانًا في نفي العصبيَّة لها، وكلُّ ذلك مرفوض مهما كان شأن من صدر عنه، إنَّما السَّبب الَّذي جرَّ إلى ذلك في كثير من الأحيان كان هو العجلةَ في فحص الأمر، مع قلَّة الرَّصيد العلميِّ لبعض من وقع في ذلك، أقول هذا ولا أجد فيه أدنى حرج؛ لأنَّه ـ أوَّلًا ـ عيبٌ يجب أن يعالج، ورحم الله امرءً عرف قدر نفسه وأنزلها منزلتها، ولأنَّه ـ ثانيًا ـ داءٌ مستشر بين كلِّ الفرق، فعاد في ذمِّ

السَّلفيِّين به ـ على سبيل الحصر ـ تحيُّزٌ للفئة ليس إلَّا، على أنِّي أذكِّر المخالف لنا ـ هنا ـ بما قعَّده علماؤنا منهجيًّا في أُطر الاستدلال الكبرى ـ ليكون هو المراعى دون ما شذَّ ـ من قولهم في إثبات الدَّليل: الباب إذا لم تجمع طرقه لم تتبيَّن علَّته، قاله ابن المديني، وقولهم في إثبات الدِّلالة منه: الباب إذا لم تجمع أحاديثه لم يتبيَّن فقهه. قاله ابن خزيمة، ثمَّ ولحجز الحدث ومن لا أهليَّة له عن التَّصدُّر؛ كتب إمام زمانه ومحدِّثه أبو عمرو بن الصَّلاح كتابًا رائقًا في خطر الفتوى وأحكامها وأهلها وأبدع فيه إلى الغاية... سمَّاه أدب المفتي والمستفتي.

فهذا المنهج الثُّلاثيُّ المتكامل في تحوير الفكرة الفقهيَّة خصوصًا والدِّينيَّة عمومًا؛ يفضح المدَّعين، ويسقط المتسلِّقين، لأنَّه لا يقوى عليه إلَّا من استجمع الآلة، وتهيَّأت عنده القدرة على النَّظر، ثمَّ راقب الله فيما يوقِّع عنه.

أفبَعد هذا المنهج القائم للسَّلفيِّين في تفحُّص العلم والنَّظر فيه، والاحتياط له بإبعاد من لا يستأهل الخوض فيه ـ عنه ـ؛ يأتي من يترك كلام كبرائهم ومن في كلامه الحجَّة على منهجهم؛ ويذهب يحاكمهم بما يقع فيه بعض صبيانهم وأدعيائهم؛ فإنِّي ههنا أقول: هو ـ والله ـ إلى الصِّدق والدِّيانة فيما يغمز به النَّاس؛ أحوج منه إلى التَّشكِّي والإهانة، فإنَّ ثمَّة يومًا ستكشف فيه السَّرائر عند من لا تخفى عليه خافيةٌ، وكلٌّ يورد ـ يومئذ ـ على الله مسؤولًا على ما أضمر.

«يتبع»



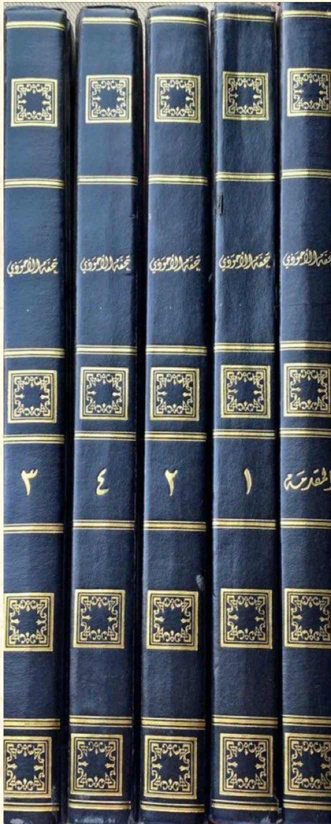
* آثار سلفية:

أَثَرٌ عزيزٌ مِن مَصْدَرٍ عَزِيزٍ في رَدِّ البِدع

«عن أبي العالية قال: كنَّا مع ابن عمر في سَفَر، ونزلنا بِذِي المَجَاز على مَاءٍ لبعض العرب، فحضرت الصَّلاة، فأذَّن مؤذنُ ابن عمر ثُمَّ أقام الصَّلاة، فقام رجلٌ فعَلَا على رَحْلٍ من رحالات القوم، ثُمَّ نادى بأعلى صوته: الصَّلاة، يا أهل الماء!، الصَّلاة. فجعل ابن عمر يُسَبِّح في صلاته، حتَّى إذا قضت الصَّلاة، قال ابن عمر: **مَنِ الصَّائح بِالصَّلاة؟** قالوا: أبو عامر، يا أبا عبد الرَّحمن، **فقال له ابن عمر: لا صَلَّيْتَ ولَا تَلَيْتَ، أي شيطانك أَمَرَكَ بِهَذَا!، أَمَا كَانَ فِي اللهِ وسُنَّةِ نبيِّه ﷺ والصَّالحين، مَا أَغْنَى عَنْ بِدْعَتِكَ هذه؟!، إِنَّ النَّاسَ لَا يُحْدِثُونَ بِدْعَةً، وَإِنْ رَأَوْهَا حَسَنَةً، إِلَّا أَمَاتُوا سُنَّةً.** فقال رجلٌ من القوم: إنَّه ما أراد إلَّا خيرًا يا أبا عبد الرَّحمن!، فقال ابن عمر: **لَوْ أَرَادَ خَيْرًا مَا رَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ والصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ».**

رواه ابن بَطَّةَ في جُزْءٍ صنَّفه في الرَّدِّ على مَن صَاحَ عند الأذان: الصَّلاة، الإقامة.

[«شرح عمدة الفقه» لابن تيمية 3/ 120- 121]



* سِيَرٌ وتَرَاجِم:

إجازة الشَّيخ عثمان بن المكِّي التُّونسي لِتِلْمِيذِه الشَّيخ موسى الأحمدي نْوِيوَات

* نصُّ الإجازة:

«الحمد لله الَّذي جعل الإجازة سُلَّم سعادة الدِّين، وسبب بثِّ العلوم الشَّرعيَّة ورسوخها ما كان بالسَّند، والصَّلاة والسَّلام على الواسطة العظمى، سيِّدنا محمَّد صاحب المقام الأسمى، والجناب الأحمى، وعلى الصَّفوة الأخيار، وآله الخيرة الأبرار، وأصحابه المبلِّغين ما حفظوا من أقواله وأفعاله.

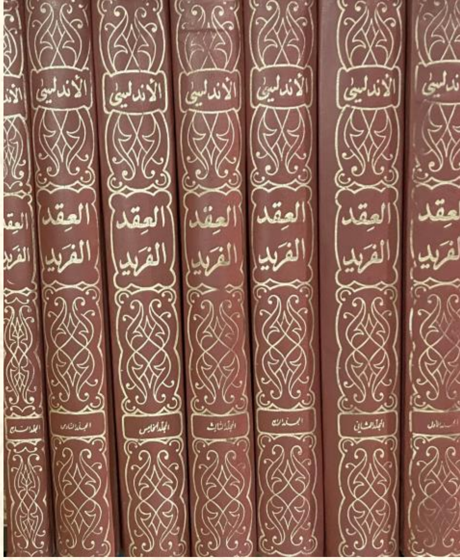
أمَّا بعد: فإنَّه لمَّا كان العلم أمانة، والتَّحلِّي به تلزمه الصِّيانة، والتَّباعد عن الخيانة، ركب الجهابذة من الأُمَّة في طلب تحصيله كلَّ صعب وذَلُول، وبذلوا الوسع في إدراك المعقول منه والمنقول، وإنَّ ممَّن جَدَّ في نيل هذا الفضل وفارق للاِتِّصاف به الوطن والأهل، الفقيه الفاضل الزَّكِي المُشَارِك **نويوات السَّيِّد موسى بن الحاج محمَّد بن الملياني الأحمدي الدَّرَّاجي**، وثابر على القراءة وواظب على مجالس العلم، واستمرَّ وظفر بما قدِّر له تحصيله منه، ولم يُقصِّر به ما ناله عن مرتبة الإرشاد والأخذ عنه.

ولمَّا عزم على الرُّجوع إلى بلده، ومنبت أصوله وسلفه، التمس منِّي إجازةً عامَّةً على ما هي عليه السُّنَّة بين علماء الشَّريعة الَّتي هي مِن خصيصة هذه الأُمَّة الرَّفيعة.

فأقول: قد أَجَزْتُ لهذا الفاضل في كلِّ ما تصحُّ روايتي عنِّي، سواء سمعه عنِّي أو لم يسمعه، على الشَّرط المقرَّر المبسوط في كتب إجازات الأئمَّة، كما أجازني في ذلك مولانا الإمام، العَلَم الهمام، الشَّيخ سيدي محمَّد الطَّيِّب النِّيفَرْ الباش مفتي المالكيَّة، وهو عن

شيخه السَّيِّد أحمد زيني شيخ العلماء بالحرم الشَّريف المكِّي زاده الله تشريفًا وتعظيمًا، وهو عن شيخ الشُّيوخ بالحَرَمَين السَّيِّد عثمان الدمياطي، وهو عن شيخه خاتمة المحقِّقين محمَّد الأمير الكبير. وإنَّ المُجَازَ المذكور يُوصَى في ذلك بما أوصى به الله تعالى في محكم كتابه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:131]، عاملًا عند تعليمه وجوابه عَمَّا سُئِلَ عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ﴾ أي: ولَا تَقُلْ ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولًا﴾ [الإسراء:36]. وأَنْ لَا يَنْسَانِي مِن صالح دعواته في مظانِّ الإجابة، جزاءً لِمَا عَلَيَّ مِن الحقِّ، والله يُبَلِّغُ كُلَّ واحدٍ منَّا مِن الخير مُنَاه، ويجعل أَبْرَكَ أيَّامنا وأَسْعَدَهَا يوم لُقَاه، بِجَاهِ سيِّدنا محمَّد رسوله ومُصْطَفَاه [ﷺ].

قاله وكتبه: فقير ربِّه عثمان بن بلقاسم بن المكِّي عُرِف عثمان بن المكِّي - في ذي الحجَّة الحرام خاتم شهور ثمانية وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النَّبويَّة على صاحبها أفضل الصَّلاة وأزكى التَّحيَّة»[20].



(20) «الأديب موسى الأحمدي نويوات: حياته وآثاره» لنجيب بن خيرة، (ص41-42).

* قَصَائِدُ وأَشْعَار:

إلى أمير شعراء الجزائر

صديقي الشَّيخ محمَّد العيد

****

خاطب بها الشَّاعر صديقه من بسكرة

النَّخيل إلى جزائر مَزْغَنَّة

****

جِسْمِي لِبُعْدِكُمْ سَقِيم
وَالقَلْبُ عِنْدَكُمْ مُقِيمْ
إِنْ بِنْتُ عَنْكُمْ إِنَّنِي
بَاقٍ عَلَى العَهْدِ القَدِيمْ
لَا أَنْثَنِي عَنْ حُبِّكُمْ
قَسَمًا بِخَالِقِنَا العَظِيمْ

إِنْ أَنْكَرَتْنِي بَلْدَةٌ
سِرْتُ البُكُورَ مَعَ النَّسِيمْ
وَالفَجْرُ فِي كَبِدِ السَّمَا
لَمْ يَنْتَشِرْ فَوْقَ الأَدِيمْ
أَوْ أَنْكَرَتْنِي رُفْقَةٌ
فَأَرِيمُ عَنْهَا مَا تَرِيمْ
وَصَفَحْتُ عَنْ زَلَّاتِهَا
وَالصَّفْحُ مِنْ طَبْعِ الكَرِيمْ

يَا عِيدُ مَا تِلْكَ المَوَا
عِدُ قَدْ تَرَاءَتْ كَالسَّدِيمْ
هَلْ نَحْنُ كَمُّونٌ بِمَزْ
رَعَةٍ وَسَاقِينَا لَئِيمْ(21)
أَصَرَمْتَ حَبْلَ مَوَدَّتِي
بَيْنَ العَشِيَّةِ وَالصَّرِيمْ؟
وَنَسِيتَ أُنْسَ مَجَالِسٍ
مَرَّتْ كَأَحْلَامِ الفَطِيمْ
صَهْبَاؤُهَا وَقِيَانُهَا
طَرَفٌ مِنَ الأَدَبِ الصَّمِيمْ
كُنَّا (وَفَرْحَاتًا) وَ(جَلُّـ
ـولًا) كَمَا العِقْدُ النَّظِيمْ(22)

---

(21) تلميحٌ لقول الشَّاعر:

لَا تَجْعَلُونِي كَكَمُّونٍ بِمَزْرَعَةٍ
إِنْ فَاتَهُ السَّقْيُ أَحْيَتْهُ المَوَاعِيد

(22) الشَّيخ فرحات الدراجي والشيخ جلول البدوي.



«كَنَدْمَانَيْ جُذَيْـ

ـمَةَ» وَالزَّمَانُ لَنَا بَسِيمْ

فَتَفَرَّقَتْ أَشْبَاحُنَا

وَالأَمْرُ للهِ العَظِيمْ

يَا عِيدُ مَا هَذَا التَّكَا

سُلُ وَالتَّمَاطُلُ بِالرَّقِيمْ

إِنْ كَلَّفَتْكَ رِسَالَتِي

خَمْسِينَ (صَانْتِي) أَوْ (مَلِّيمْ)

فَاتْرُكْ مَسَاءَكَ قَهْوَةً

وَابْعَثْ كِتَابًا لِلحَمِيمْ

دُمْ لِلجَزَائِرِ شَاعِرًا

مُتَسَنِّمًا عَرْشَ النَّظِيمْ

أَنْتَ الأَمِيرُ حَقِيقَةً

وَأَنَا بِذَلِكُمُ الزَّعِيمْ

(بسكرة) (حمزة بوكوشة)[23]

****

(23) مجلَّة «الشِّهاب»، م12، ج7، رجب 1355هـ، أكتوبر 1936م، (ص234- 235).

* تَارِيخٌ وَمُدُنٌ:

وَهْرَان الإِسْلَامِيَة:

رِبَاطُ يِفْرِي:

رِبَاطُ الطَّلَبَةِ المُجَاهِدِين (1206هـ)



* رخامةٌ أمام باب المسجد الَّذي أُقِيمَ مكان الرِّبَاط:

لَّما استأذنَ باي الغرب؛ الباي محمَّد بن عثمان الكبير ـ السُّلطانَ في مناجزةِ «**وهران**»، استنفرَ النَّاسَ للجِهاد، وجمعَ العُدَدَ الَّتي يُقاتِل بها، ورتَّبَ المرابطين من أحواز «**وهران**»، جمعهم للتَّضييق على الكفَّار، ثمَّ رتَّبهم مرَّةً أخرى قريبًا من مرمى العدو ـ كما يقول ابن سحنون الرَّاشدي ـ: «**في جبل المائدة المطلِّ على وهران من الجهة الشَّرقيَّة منه، وعلى مَرْسَاهَا من جهته الغربيَّة**»، وأَمَّر عليهم **الشَّيخ الجلالي** ـ نسبة إلى جدِّه أبي جلال ـ.

هو أبو عبد الله، محمَّد بن الموفق بن محمَّد بن عبد الرَّحمن بن محمَّد بن محمَّد المشهور بأبي جلال، رحل إلى حاضرة فاس وأخذ عن علمائها، ورجع فدرَّس العلوم، ثمَّ رحل إلى الحجاز، والتقى بعلمائها، وجالسهم وباحثهم، وقد أجاز تلميذه (أحمد ابن سحنون الراشدي) في 26 من ربيع الثَّاني سنة 1203هـ.

ـ أعاد الباي حصار بلد «**وهران**» وعزم على غزوها، وحيث خافَ أن يبنيَ كفرةُ الإسبان في مدَّة تجهُّزه بجبل المائدة ما يمنعه منهم، فظهر له أن يُوَجِّه للجبل الطلبةَ يحمونه منهم ويحوطونه عنهم، فدعاهم إلى ذلك، ودفع لهم العُدَّة والبارود والرَّصاص، وما يكفيهم من الطَّعام، ومنعَ الناسَ من التَّدريس في المدن وألَّا يكون تدريسٌ إلَّا في ذلك الجبل. فخرج بهم أميرهم المذكور ـ الجلالي ـ أواخر ربيع الأوَّل 1206هـ، وتقدَّمه بعضهم بأيَّامٍ، ومعه الشَّيخ القاضي الطَّاهر بن حَوَّا ـ قاضي معسكر ـ، وبعث الأمير إلى الشَّيخ محمَّد بن علي بن الشَّارف المَازُونِي، فقدم عليه هو وولده

الشَّيخ السَّيِّد هَنِّي وأخوه السَّيِّد محمَّد في نحو 200 طالب، فدفع لهم العدَّة وآلاتها، وألحقهم بإخوانهم.

ولم يزل الطَّلبة في البلاد القريبة يرغبون في الجهاد، ويلحقون بإخوانهم ويتزايدون، حتَّى كثروا واشتدَّت شوكتهم على الكفرة.

ـ وكان بين الطَّلَبَة المجاهدين وكَفَرَةُ الإسبان قتالٌ، وهُم في ذلك لا يتركون قراءةَ الفقه والنَّحو وقراءة القرآن.

قال ابن سحنون: «لا يتركون إلَّا في أوقات القتال، وباللَّيل يبيتون يتلون القرآن العزيز لا يفترون عنه إلَّا نحو السَّاعتين من أوقات النَّوم».

ـ وكان القاضي الطاهر بن حوَّا قد أصيب بجروح، وتوفِّي رَحِمَهُ اللهُ أوَّل ليلة من جمادى الأولى 1206هـ[24].

وقال الدكتور يحيى بوعزيز ـ سنة 1988م ـ: «**وما يزال هذا الرِّباط قائمًا حتَّى اليوم، كمغارة في قمَّة الجبل**، ويسكنه بعض الفقراء والمتسوِّلين، ووضعت له بابٌ، وفوقه ضريحٌ أُزِيلَ عام 1980م»[25].



* المسجد الَّذي أُقِيم مكانَ الرِّباط





* منظر مقابل قرية يِفْرِي قرية الرِّباط والشُّهداء

---

(24) ملخَّصٌ مِن «**الثَّغر الجُمَاني في ابتسام الثَّغر الوهراني**» لابن سحنون الرَّاشدي (ص228-241) و«**مدينة وهران عبر التَّاريخ**» للدكتور يحيى بوعزيز (ص96-97).

(25) «**مدينة وهران عبر التَّاريخ**» للدكتور يحيى بوعزيز (ص97).

قرية "يفْرِي"؛ رِبَاطُ وهران القديم:

حي راس العين و"البلْونْتِير" (les planteurs):



** شُهداء "يفْرِي"؛ رِباط وهران **

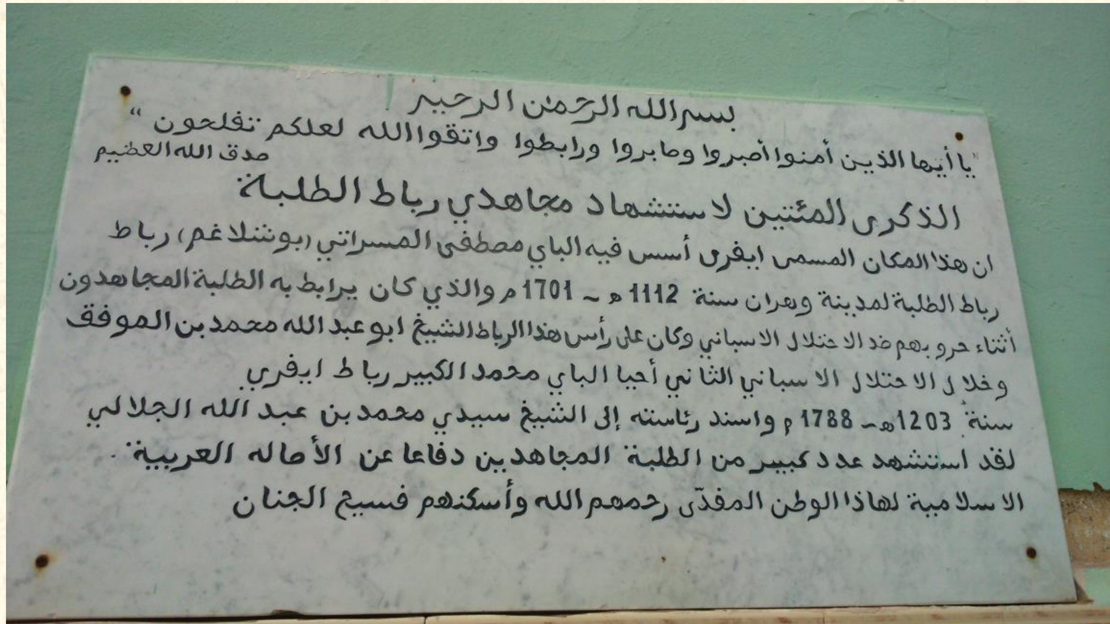




هذا المسجدُ الَّذي في الصُّورة هُوَ مَوضعُ الربَّاط، وعند بابه تلك الرُّخامة المنقوش عليهَا شيءٌ عن الربَّاط وشهدائِهِ... رباطُ «يفْرِي»؛ رِباطٌ قديمٌ أحياهُ الباي محمَّد بن عثمان، باي الإيالة الغربيَّة وقاعدتُهُ «مُعسكر» عام 1206هـ=1791م، وقع اختيار الباي على مدير «المدرسة المحمَّديَّة» بـ«معسكر» الشَّيخ أبي عبد الله محمَّد بن عبد الله الموفَّق الجلالي، الَّذي درس في تلمسان وفاس، فعيَّنه رئيسًا للرِّباط، وعيَّن له مُساعدين هما: قاضي معسكر الطَّاهر بن حَوَّا- وقد استشهد في هذا الرِّباط-، وكاتب الباي الخاص: محمَّد المصطفى بن زرفة الدحاوي، ومَنَعَ البايُ التَّدريس بكامل الإيالة إلَّا في الرِّبَاط! وكان الطَّلبةُ قد كثروا في مُدَّتِه، ورغِب النَّاس في التَّعليم، وفي هذا الرِّباط كان الباي يُمِدُّهُم بالأطعمة والسِّلاح والبارود وكل ما يطلبُهُ الطلبةُ! وقَدِمَ عليهِم في هذا الرِّباط العالم الشَّهير محمَّد بن علي أبو طالب المَازُونِي على رأس 200 طالب، وكان عمره يجاوز الثَّمانين سنةً... كان كفرةُ الإسبان يرمون الرِّباط بالمدافع (البُونْبَاتْ).. ولكن موقع الرِّبَاط الجغرافي الَّذي هو عبارة عن كهوف وغِيران طبيعيَّة ساعدَ على الاحتماء بعد حمايَةِ اللهِ تعالى...

مِن «رِباط يفْرِي» وأنتَ تُواجِهُ الضِّفَّة اليمنى (الشَّرقيَّة) لوادي «راس العين»، ويُقابلُكَ «البرج الجديد» أو «بُرْج سَانْ أُنْدْرِي» .... طلَبَةُ العلم المرابطون المجاهدون هم الَّذين حصل على أيديهم فتحُ وهران وتَمَّ طَرْدُ الإسبان مِنها نهائيًّا، كان هذا رِبَاطُ «يفْرِي» مِن

أَكبَرِ عَوْرَاتِ الإِسبان! لِذَا وَقفَ لهم المرابطُون يُفزِعون الكفرَة ويروعونهم وهُم في مَآمِنِهِم وحُصُونِهِم، وجعلوا يُراقبونهم ومتى خرجت طائفةٌ مِن حصونها لجِهَتِهِم بادروا إليهم وانقَضُّوا عليهم كالصقور وقتلوهم، وكانوا يُكثرون عليهم الغارات! ويدورون بأَسْوَارِهِم ويُقاتِلُونَهم مِن خَلْفِ أَبْنِيتِهِم!... هذا والطَّلَبَةُ قد قسَّمُوا أوقاتهم ما بينَ أوقات القتال، وأوقات قراءة القرآن والفقه والنَّحو، وأوقات للنَّوم!... وإذْ كان كفرة الإسبان يرمونَ الرِّباطَ بالمدافع كان المرابطون أيضًا يرمونَهم بالمدافِعِ... وحَمِيت وطيسُ الحرب، واشتدَّ القتالُ حتَّى استسلمَ الإِسبانُ وجهَّزُوا أنفسهم للخروجِ مِن وهران نهائيًّا..عام 1206هـ=1791م-1792م...



※ ملاحظة: هناك خلطٌ في المكتوب على الرُّخامة، فأبو عبد الله محمَّد بن الموفَّق ـ هُو نفسُهُ محمَّد بن عبد الله الجلالي!

طَالَعْتُم فِي العَدَدِ السَّابِق:

14

مَصَابِيح العلم

نَشْرَةٌ دَعَوِيَّةٌ تُعْنَى بِالتُّرَاثِ والمَخْطُوط والسِّيَرِ والتَّارِيخ /العدد الرَّابع عشر/ شوال 1442هـ- ماي 2021.



✵ **الفُرْقَان بين أولياءِ اللّه وأولياء الشَّيطان**

عثمان أفندي العثماني؛ حافظ الكتب

✵ **يَقُولُونَ، ونَقُولُ!**

أبو إبراهيم الزَّوَاوِي ملياني

✵ **مِنْ رسائل ابن باديس لِتَلَامِذَتِه**

✵ **كَبْشُ العِيد** | موسى الأحمدي نْوِيوَات